تزايد نفوذ الأتراك في العصر العباسي (٢١٨-٢٣٢هـ)

مشاعل عبيد جزاء العتيبي
محاضر بكلية التربية بالمزاحمية جامعة شقراء

الملخص:
يهدف البحث الحالي إلى تسليط الضوء على أسباب تزايد نفوذ الأتراك في الدولة العباسية (٢١٨-٢٣٢هـ) ومظاهره وكيف أصبحوا أهل الحل والعقد في الدولة فقد احتل القواد الأتراك مكانة رفيعة عند الخليفة المعتصم بالله بعد الانتصارات العظيمة التي حققوها وقد حمل المؤرخون المعتصم تبعة ما حدث للخلفاء من بعده واتهموه بقصر النظر في سياسته تجاه الأتراك وتقريبهم له وأطلقوا على هذه الفترة فترة القلق لما حدث للدولة من اضطراب بدخول عنصر جديد "الترك" احتل مكانة مرموقة في الدولة من الناحية العسكرية والسياسية واستحوذوا على إعجاب الخليفة مما دفعه إلى أن يترك عاصمة بلاده التقليدية ويقيم لهم معسكراً أصبح فيما بعد عاصمة جديدة كما تناول البحث مكانتهم في عهد الواثق بالله وكان لتزايد هذا النفوذ أثر خطير على مصير الدولة الإسلامية حيث ظهرت آثاره فيما بعد على الحكم والذي أعقبه انقسام الدولة الإسلامية إلى دول مستقلة.
الكلمات المفتاحية : تزايد – نفوذ – الأتراك – الدولة العباسية.

Turkish increased influence in Abbasid Caliphate (218-232H)

Mashael Obaid Jazaa Al-Otaibi
Lecturer at College of Education in Muzahmiyah – Shaqra University

Abstrac :
The present research aims to highlight on reasons of Turkish increased influence in Abbasid Caliphate (218-232H) and its features and how they became decision makers in the state. Turkish leaders have occupied a supreme position at the Caliph Al-Mutassem Billah after their great victories, historians thought that Al-Mutassem was responsible for what happened to the caliphs after him and they accused him with political nearsightedness towards Turkish and approaching them from him, they described this period as anxiety one due to disturbance that affected the state represented by existence of new element (Turkish) who occupied notable position in the state, especially from military and political sides and they obtained the Caliph appreciation which motivated him to leave the traditional capital of his country and making a camp for them that later on became as a new capital. The research also discussed their position during epoch of Al-Watheq Billah and this increased influence had a significant effect regarding future of the Islamic state and these effects appeared, such as lost of caliphate influence and Turkish takeover on decision followed by division the Islamic state into independent ones.
Keywords: increased – influence – Turkish – Abbasid Caliphate.

تزايد نفوذ الأتراك في الجيش العباسي : أسبابه، ومظاهره:

كان للظروف التي مرت بها دولة المعتصم دور في تزايد النفوذ التركي، وعلوّ مكانتهم في تلك الفترة الوجيزة من حكم المعتصم بالله، فقد كانت الأخطار تحيط بدولته، وكان من أكبر وأخطر الخارجين على خلافته بابك الخرّمي[١]. الذي عجزت جيوش المأمون عن التخلص منه، فأوصى المعتصم بجلب الأتراك[٢]، فبعد تولي المعتصم الخلافة جعل همه قمع خطر بابك، ففي سنة ٢٢٠ هـ عقد للأفشين حيدر بن كاوس على الجبال، ووجهه لحرب بابك[٣].

ثم أمده بالقائد التركي بغا الكبير ومعه مال للجند والنفقات، ثم أنفذ إليه إيتاخ ومعه ثلاثون ألف درهم للجند والنفقات، فأوصل ذلك للأفشين وعاد[٤].

وبعد حروب مستمرة تمكن الأفشين سنة ٢٢٣ هـ من فتح البذ[٥] مدينة بابك، ودخلها المسلمون وخربوها واستباحوها[٦]. ثم قدم الأفشين إلى سامراء ومعه الخرمي أسيراً[٧].

وقد استنزفت حرب بابك الأموال والأرواح، وقد أظهر الأفشين الشجاعة الثبات في محاربة بابك، وحفظ المعتصم للأفشين هذا الفضل، فتوجه وألبسه وشاحين بالجوهر، ووصله بعشرين ألف ألف درهم، وعقد له على السند، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه[٨]. على ما فعل من خير للمسلمين، على تخريبه بلاد بابك[٩].

ومما لا شك فيه أن انتصار الأفشين على بابك، وأهدافه المجوسية كان من أول الأسباب التي أدت إلى تزايد نفوذ الأتراك، وكسب ثقة الخليفة، وقد دفعه هذا النصر إلى الاستعانة بهم، وتقريبهم لمواجهة خطر الروم على الحدود الإسلامية، فعندما أيقن بابك الضعف وأشرف على الهلاك كان يراسل ثيوفيل بن ميخائيل ملك الروم، ويحثه على الخروج لمحاربة ملك العرب، وكان يطمع أن يخرج ملك الروم فينكشف عنه بعض الجيوش المحيطة به، وقد خرج ملك الروم وسار إلى زبطرة بجيوشه[١٠].

---

(١) بابك الخرمي: ظهر بابك في الجاويذانية أصحاب جاويذان بن سهل، صاحب البذ، ادعى أن روح جاويذان دخلت فيه، وأخذ في العبث والفساد، وتبعه خلق كثير، الطبري: تاريخ الطبري، ١٣٩/٥ - ابن الأثير: الكامل، ٤٣٢/٥.

(٢) ابن قتيبة: المعارف، ٣٩١/١.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ، ٢١٠/٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ٤٤٣/٦.

(٥) البذ، من مدن أذربيجان، مدينة حصينة، تقع في منطقة جبلية كثيرة المضائق والعقبات. المقدسي ١١٧/٦ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤٢٩/١.

(٦) الطبري: تاريخ الطبري ، ٢٢١/٥.

(٧) الكوفي: الفتوح، ٢٣٨/١٢.

(٨) الطبري: تاريخ الطبري، ٢٣٤/٥.

(٩) ابن كثير: البداية والنهاية، ٢٨٥/١٠.

(١٠) الطبري: تاريخ الطبري ، ٢٣٥/٥.

فالتف المعتصم بخواص قواده الأتراك، ونظم عسكره وهو على أبواب عمورية ثلاث فرق: أشناس في الميسرة، والمعتصم في القلب، والأفشين في الميمنة[١]، وقد أحرزوا النصر وفتحت عمورية، قال الحسين بن الضحاك الباهلي[٢]، يمدح الأفشين، ويذكر وقعته التي كانت بينه وبين ملك الروم:

كل مجد دون ما أثَّله ... لبني كاوس أملاك العجم
إنما الأفشين سيف سلّه ... قدرُ الله بكفّ المعتصم
لم يدع بالبذّ من ساكنه ... غير أمثال كأمثال إرم
ثم أهدى سلماً بابكه ... رهن حجلين نجياً للندم
وقرا توفيل طعناً صادقاً ... فضَ جمعيه جميعاً وهزم[٣]

هذه الأبيات تدل على أن رموز الأتراك أصبحوا يمدحون من قبل الشعراء، ويقال فيهم القصائد كالخلفاء، وغيرهم من القادة مما يدل على علو شأنهم.

كما كان لاكتشاف المعتصم لمؤامرة عجيف بن عنبسة والعباس بن المأمون التي تهدف للتخلص من الخليفة دور كبير في تقريب قواده الأتراك لحمايته، وقد فقد الثقة في العرب والفرس المحيطين به، ويذكر أنه بعد انكشاف المؤامرة لم يصدق المعتصم لكثرة القواد المشاركين فيها[٤].

وقد كان هناك مظاهر لنفوذ الأتراك، لعل أبرزها الإكثار من جلبهم من أماكنهم، والاعتناء بهم، وتمييزهم عن باقي الجند، ويذكر أنه ألبسهم أنواع الدبياج والمناطق المذهبة والحلية[٥].

وقد دفعه هذا للخروج عن عاصمة آبائه وأجداده، وبناء عاصمة عسكرية لجنده، وكان لهذا أثر كبير في ما بعد على بغداد واقتصادها، حيث أصبحت سامراء فيما بعد أعظم البلاد عمراناً وحضارة، وأدى ذلك إلى سخط العرب والفرس على السواء، فحدثت الثورات، وظهرت النزعات الاستقلالية، إلا أن الأتراك في عهد المعتصم ظلوا أداة طيعة في يد الخليفة، نظراً لصرامة الخليفة وهيبته عندهم، فهم لم يشكلوا خطراً في عهد المعتصم (٢١٨-٢٢٧ هـ)، وذلك لقوة الخليفة كما ذكرنا، ولأنه استوعب جل طاقتهم أو كلها في سلسلة من الأعمال الحربية.

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ٥٠/٥.
(٢) الحسين بن الضحاك: هو الحسين بن الضحاك بن ياسر البصري مولى باهلة، خرساني الأصل، السمعاني: الأنساب ٣٩٣/٢.
(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ٢٤٣/٥.
(٤) الطبري، تاريخ الطبري، ٢٤٣/٥.
(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ٣١١.

مكانة الأتراك في عهدي المعتصم والواثق

١ـ مكانة الأتراك في عهد المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ)

احتل القواد الأتراك مكانة رفيعة عند المعتصم بعد الانتصارات العظيمة التي حققوها، والتي تمثلت في قضائهم على بابك الخرمي، وثيوفيل ملك الروم[١].

ولم تمضِ مدة بعد ما جلبهم المعتصم حتى صاروا مسموعي الكلام في الدولة، وجاوز صيتهم الآفاق، وقويت شوكتهم، وكثر نفوذهم إلى حد أن قال الشاعر:

أصبح الأتراك مالكي الأمر والعالم ما بين سامع ومطيع[٢]

وقد حمّل المؤرخون المعتصم تبعة ما حدث للخلفاء من بعده، واتهموه بقصر النظر في سياسته لاتخاذه الأتراك وتقريبهم له، وكذلك أولاده من بعده[٣].

وقد أطلقوا على هذه الفترة القلق لما حدث للدولة من اضطراب بدخول عنصر جديد (الترك) احتل مكانة مرموقة في الدولة من الناحية العسكرية السياسية، واستحوذوا على إعجاب الخليفة، مما دفعه إلى أن يترك عاصمة بلاده التقليدية، ويقيم لهم معسكراً أصبح فيما بعد عاصمة جديدة[٤].

وقد حاز الأتراك على إعجاب المعتصم منذ أن كان أميراً، فيذكر الكندي أنه عندما ندبه المأمون إلى قمع الثورة التي قامت في مصر سنة ٢١٤هـ، توجه إليها أبو إسحاق في أربعة آلاف من أتراكه[٥].

وأيضاً في الحرب التي وقعت بين المعتصم وبين مهدي الحروري سنة ٢٠٣هـ انهزم جند المعتصم وتركوه إلا جماعة من موالي الأتراك، وهم مع قلة عددهم ثبتوا وصبروا حول المعتصم، وحملوا أوزاره إلى أن انتهت الحرب[٦].

أعتلى المعتصم كرسي الخلافة فسنحت له الفرصة للاستكثار من الأتراك، فاشترى من كان منهم من الرقيق في بغداد، وكان ممن اشتراهم أشناس، ووصيف، وسيما الدمشقي الذين أصبح لهم فيما بعد مراكز قيادية في الجيش والدولة[٧].

ولم يكتف المعتصم بشرائهم، بل كتب إلى واليه على خراسان أن يرسل إليه من هؤلاء الأترك، وألحّ في طلبهم من مواطنهم الداخلية من بلاد ما وراء النهرر

(١) الطبري: تاريخ الطبري ، ٢٣٣/٥، ٢٤٣.
(٢) زكريا كتابجي: الجاحظ والأتراك، ص١٢١.
(٣) شاكر مصطفى: دولة بني العباس: ٤١٦/٢.
(٤) المرجع نفسه، ص٤٢٨.
(٥) الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف: الولاة والقضاة، ص٤٦٥.
(٦) زكريا كتابجي: الترك في مؤلفات الجاحظ، ص١٢٧.
(٧) أحمد عبدالباقي: سامراء عاصمة الدولة العربية، ص٤٦٥.

هاجر الأتراك تاركين بلادهم إلى بغداد بعد أن سمعوا أن إخوانهم انضموا إلى جند الخليفة وأخذوا يعيشون عيشة راضية[١].

فقد أسند إليهم المعتصم أمر سلامته الشخصية فجعل منهم حرسه الخاص، ثم أدخلهم في جيشه المحارب، واستطاعوا بشجاعتهم وبطولتهم أن ينالوا تقدير الخليفة، وأن يصلوا إلى القمة في أمور الحرب[٢].

وثمة أسباب متعددة دفعت المعتصم للاعتماد على الأتراك أشار إليها عدد من الباحثين، فمن ذلك ما تميز به الأتراك من شجاعة وبسالة في الحروب، وهناك من يرى أنهم أخواله، فأمه تركية اسمها ماردة[٣].

وقد اكتسب منهم القوة والشجاعة، كذلك التقارب الفكري بين طبيعة المعتصم وثقافته وبين طبيعة الأتراك وثقافتهم، فلم يكن لديهم ميل نحو أمور الحضارة وتقليدها قدر ميلهم إلى أمور الحرب والسلاح، وهذا ما كان يفضله المعتصم الذي نشأ مولعاً بأمور الحرب والفروسية[٤].

كذلك دفعته الأحداث إلى فقدان الثقة في العرب والفرس على السواء، أما العرب فبسبب عصبيتهم واعتزازهم بدورهم في الإسلام، وإدراكهم أن سلطانهم قد زال بزوال دولة الأمين بسيوف الفرس، مما دفع نصر بن شبث للثورة في وجه المأمون دفاعاً عن العرب، أما الفرس فقد اتضح أنهم يقصدون الاستبداد بالسلطان، وظهر ذلك منهم في ظروف متعددة، فأنزل بهم العباسيون ألوان التنكيل، كالبرامكة، وبني سهل[٥].

لذا نظر لهم العباسيون على أنهم أعداء سياسيون للدولة، فضلاً عن عدائهم للعروبة والإسلام، كذلك اعتنق معظم الفرس تعاليم الشيعة، وتكررت منهم محاولات تحويل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي[٦].

كذلك حاجة البلاد إلى جيش قوي في ظل الظروف التي تحيط بالدولة أثناء توليه الخلافة، فقد كانت مهددة بشكل مباشر؛ نتيجة لاستفحال ثورة بابك الخرمي، وخطر البيزنطيين على الحدود، وظهور الزط[٧].

ويعلل الدوري استكثار المعتصم من الأتراك في الجيش لاختلال التوازن بين عناصر الدولة العباسية، حيث ساءت العلاقة بين العباسيين والخراسانيين، فالتجأ المعتصم إلى عنصر جديد يجعل منه الركن العسكري في الدولة[٨].

ويرى بعض الباحثين أن من الأسباب التي حدت بالمعتصم إلى الاستكثار من الأتراك والاعتماد عليهم أن الدولة مهددة بحركة الخرمية ذات النعرة الفارسية، والتي كان يقودها بابك الخرمي، ثم ظهور خطر

(١) المرجع نفسه.
(٢) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ٣٩٣/٣.
(٣) ابن الأثير: الكامل، ٧١/٦.
(٤) فاروق عمري فوزي: العصر الذهبي عصر الازدهار الحضاري وبدايات التدهور السياسي والإداري، ص١٣٩.
(٥) أمينة بيطار: تاريخ العصر العباسي، ص ٢٢٣؛ أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص٣٩٢.
(٦) نادية حسين صقر: مطلع العصر العباسي الثاني، ص٥٤.
(٧) حسام الدين السامرائي: المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية، ص١٩٤.
(٨) عبدالعزيز الدوري: العصر العباسي الأول دراسة في التاريخ السياسي والإداري، ص١٧٧.

البيزنطيين على الحدود، فضلاً عن تذمر بعض القبائل العربية في الشام ومصر، كما أن الجند الخراساني أظهر العداء للمعتصم عندما أيدوا العباس بن المأمون، ولهذا دفع المعتصم بالأتراك إلى سلم القيادة واستكثر منهم[١].

ويرى الليلم أن مصلحة الدولة هي التي فرضت على المعتصم أن يستكثر من الأتراك، لأن في ذلك دعماً للأمن والنظام بمحاولة حفظ التوازن بين مكونات الدولة[٢].

وعندما نناقش هذا الرأي نجد أن مصلحة الدولة البعيدة في الواقع ليست في الاستكثار من هذا العنصر، بل مصلحة الدولة في اعتمادها على عناصر من إقليمها تدين لها بالولاء ، مع تطعيم الجيش بكفاءات من الأقاليم الأخرى.

وأهم ما يميز الأتراك الذين اعتمد عليهم المعتصم أنهم غرباء، لا تربطهم صلة بقبيلة أو شخص غير الخلفية العباسي، مما يجعل إخلاصهم وولاءهم له وحده، مما يجعلهم بعيدين عن التكتلات والعصبيات التي يرتبط بها غيرهم.

ويذكر أن ابن المقفع قال: "إن الذي يصول على أعدائه بجيش لا يعلم دواخل صدورهم يكون مثله كمثل راكب الأسد: الناس تراه فتوجل منه، وراكب الأسد أشد وجلاً" لذلك اضطر المعتصم أن يستخدم التركمان مخافة أن يوقع به الجنود[٣].

كثر الأتراك وقويت شكيمتهم حتى بلغ عددهم سبعين ألفاً[٤].

يشير إلى ذلك علي بن الجهم بقوله:

إمـــامي مـــن لـــه ســـبعون ألفـــاً مـــن الأتـــراك مشـــرعة الســـهام[٥]

واستكثر المعتصم منهم[٦]، فبعث إلى سمرقند وفرغانة والنواحي لشرائهم، وبذل فيهم الأموال[٧].

وكان يتشبه بملوك الأعاجم سمتاً ومشية[١]، يروي أبن طباطبا : " أن المعتصم استكثر من المماليك، فضاقت بهم بغداد، وتأذى بهم الناس، وزاحموهم في دورهم، وتعرضوا للنساء، فكان في كل يوم ربما قتل فيهم جماعة"[٢].

(١) خالد الجنابي: تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني، ١٤.
(٢) عبدالعزيز الليلم: نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء، ٢٤٢/١.
(٣) مصطفى كامل: حماة الإسلام، ص٦٢.
(٤) أبو الفداء : التبر السبوك في تواريخ الملوك، ٤٦.
(٥) الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك ، ص٢٢٢ ؛ الأزدي: ابن ظافر الأزدي: أخبار الدولة المنقطعة، ص٢٦٩.
(٦) ابن كثير : البداية والنهارية، ٢٨٥/١٠، ٢٨٦.
(٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ٢٣٣/٢.

فقد أساء هذا الحرس التركي للعرب والفرس من سكان بغداد، فلم يكن هؤلاء الأتراك على قدر من الحضارة مما يمكنهم من معايشة أهالي بغداد الذين كانوا على جانب كبير من الرقي الحضاري، فبدأت الأصوات تتعالى بالشكوى والاحتجاج في بغداد[٣]، فقد خاطب أحد الشيوخ المعتصم قائلاً : " يا أبا إسحاق لا جزاك الله عن الجوار خيراً، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج فأسكنتهم بين أظهرنا، فأيتمت بهم صبياننا، وأرملت بهم نساءنا وقتلت رجالنا" والمعتصم يسمع ذلك كله[٤].

يقول ل. أسيديو : "والجنود الترك الذين جعل المعتصم منهم حرسه الخاص هم سبب تلك الانقلابات المستمرة، وهؤلاء الموالي الذين جندوا واستقروا ببغداد قريبين من الخليفة قد أبدوا منذ البداية من الاعتداءات ما اضطر معه المعتصم نفسه إلى مغادرة عاصمته، والانزواء في مدينة سامراء الصغيرة[٥].

خاف المعتصم من جند بغداد، وخشي أن تحدث فتنة بين جنده من ناحية وأهل بغداد العرب والفرس من ناحية أخرى[٦]، وقال: "اطلبوا لي موضعاً أخرج إليه، وأبني فيه مدينة وأعسكر به، فإن رابني من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة، وكنت قادرا على أن آتيهم في البر وفي الماء، فوقع اختياره على سامراء فبناها وخرج إليها"[٧].

شرع المعتصم في بناء سامراء، وبنى بها داراً، وأمر عسكره بمثل ذلك، فعمر الناس حول قصره حتى صارت أعظم بلاد الله في العمارة، وبنى بها مسجداً جامعاً في طرف الأسواق، وأنزل أشناس بمن ضم إليه من القواد كرخ سامراء[٨].

وتقع على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخاً، وقال لها (سر من رأى)، فخففها الناس وقالوا سامراء[٩].

وقيل في ذلك الزمن إن معنى هذه التسمية أن من رآها- وقد نزلها الترك- سُرّ بنجاة بغداد منهم[١٠]، وقد حرص المعتصم على استبقائهم على دمائهم الصافية، وفطرتهم الأصيلة، يقول المسعودي :"أفرد قطائع الأتراك عن قطائع الناس جميعاً وجعلهم معتزلين عنهم، لا يختلطون بقوم من المولدين، ولا يجاورهم إلا الفراغنة، وجعل محلاتهم بعيدة عن الأسواق والزحام[١١].

---

(١) العصامي: سمط النجوم العوالي، ص٤٥٦.
(٢) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، ص٢٢٨.
(٣) نادية حسني صقر: مطلع العصر العباسي الثاني، ص٥٦.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري، ٢١٣/٥.
(٥) تاريخ العرب العام، نقله للعربية عادل زعيتر، ص ٣٩٩.
(٦) عصام الدين عبدالرؤوف الفقي: دراسات في تاريخ الدولة العباسية، ص١٧٥.
(٧) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٢٨.
(٨) ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ١٧٥/٣.
(٩) المصدر نفسه، ١٧٣/٣.
(١٠) فيليب حتي: تاريخ العرب مطول ٥٦٠/٢.
(١١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٥٥/٣.

لم يكتف بذلك، بل ذهب في سياسته إلى حد أنه اشترى لهم الجواري، فزوجهن منهم، ومنعهم من أن يتزوجوا ويصاهروا احد من المولدين إلى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم إلى بعض، وأجرى للجواري الأتراك أرزاقاً قائمة، وأثبت أسماءهن في الدواوين، فلم يكن أحد منه يقدر أن يطلق امرأته ولا يفارقها[١].

وقد أصبحت سامراء حاضرة الخلافة بانتقال الخليفة إليها، فتوافد الناس إليها من كل مكان وسكنوها، فصارت من أعظم البلدان[٢].

ولكن خروج المعتصم إلى سامراء وضعه كالأسير في يد أتراكه، ولكن قوة قبضة المعتصم على زمام الأمور، وحزمه، لم يفسح لهم المجال للتطاول عليه، وقد ظهر ذلك في عهد ابنه الواثق والخلفاء من بعده، يقول فيليب حتى : " كان الخليفة في عاصمته الجديدة كالأسير، أموره بيد حرسه"[٣].

وقد كتب المعتصم إلى واليه على مصر التركي كيدر- واسمه نصر بن عبدالله- يأمره بإسقاط من في الديوان من العرب، وقطع أعطياتهم، ففعل كيدر ذلك[٤].

ولذا خرج يحيى بن الوزير الجروي في جمع لخم وجذام، ولقد قال ابن الوزير رداً على أمر قطع المعتصم العطاء عن العرب: "هذا أمر لا نقوم في أفضل منه، لأنه منعنا حقنا وفيئنا، فانضم إليه نحو من خمسمائة رجل"[٥].

ويرى البعض أن ازدياد عدد الغلمان الأتراك هو الذي دفع الخليفة إلى اتخاذ إجراءات مالية جديدة للتقليل من العناصر غير التركية في الجيش، وكان منصباً بالدرجة الأولى على عدد العناصر العربية[٦].

وقد تجهز كيدر الصغدي لحربهم ولكن وافته المنية سنة ٢١٩ هـ وقد خلفه ابنه المظفر على ولاية مصر فتوجه لحرب الثوار فقاتلهم في بحيرة تنيس وتمكن من هزيمتهم وأسر يحيى ابن الوزير وتفرق عنه أصحابه[٧].

مما لا شك فيه أن هناك أسباباً دفعت المعتصم لاتخاذ هذه الخطوة الجريئة والمفاجئة وهي قطع العطاء عن العناصر العربية فور توليه الخلافة يرى البعض "أن المعتصم فقد الثقة في العرب وشاهد بنفسه الاضطرابات التي كانت في مصر أثناء خلافة أخيه المأمون وكان للعرب دور بارز فيها"[٨].

حيث انتهزت القبائل العربية فرصة النزاع بين الأخوين الأمين والمأمون ثم الاضطراب الذي ساد في أوائل حكم المأمون وكادت تخرج من حكم الخليفة وتستقل بأمورها وقد استطاع عبدالعزيز بن الوزير

(١) زكريا كتايحي: الترك في مؤلفات الجاحظ، ص١٣٤.
(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ٢٣٣/٢.
(٣) فيليب حتى: تاريخ العرب مطول، ص٥٦١.
(٤) الكندي: الولاة والقضاة، ص١٤٦.
(٥) المرجع نفسه، ص١٤٦.
(٦) يهجت كامل التكريتي: ثورات بلاد الشام دوافعها ونتائجها، مجلة المورد. ص١٧.
(٧) الكندي: الولاة والقضاة، ص١٤٦.
(٨) عبدالباري محمد الطاهر: فرسان الخلافة في العصر العباسي الأول، ص١٧٢.

الجروي في الوقت نفسه أن يستولى على شرقي الدلتا وحاول هو وأسرته من بعده أن يمد نفوذه على الدلتا كلها وعلى الصعيد وغلبت قبيلتا لخم وجذام على غربي الدلتا بما في ذلك الإسكندرية وأعمالها[١].

هذا بالإضافة إلى خبرة المعتصم بأحوال مصر فقد اشترك في الأعمال في عهد أخيه المأمون فكانت له ولاية الشام ومصر[٢].

وقد سار المعتصم بنفسه إلى مصر وقاتل الثوار الذين خلعوا طاعة المأمون وافتتح مصر واستقام أمرها[٣].

كما يبدو أن المعتصم كان يريد إسقاط العرب من الديوان في جميع أنحاء الخلافة، لكنه بدأ بالبلد البعيد عن حاضرة الخلافة، حتى إذا ثارت عليه تمكن منها وهو بعيد، وعرف رد الفعل، فإن كان قوياً امتنع عن تعميم هذا الأمر على بقية الأمصار، وإن كان رد الفعل ضعيفاً جعل هذا الأمر عاماً على جميع أقطار الخلافة[٤].

يحتمل أن يكون هذا الرأي صحيحاً، حيث ذكر الكندي أن قطع العطاء عن أرض مصر لم يكن مستحدثاً في عهد بني العباس، فإن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قد قطع العطاء سنة، ثم كتب إليهم كتاباً يعتذر إليهم فيه قائلاً : " إني إنما حبست عنكم العطاء في السنة الماضية لعدو حضرني، فاحتجت فيه إلى المال، وقد وجهت إليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة، فكلوا هنيئاً مريئاً ، وأعوذ بالله أن أكون أنا الذي يجري الله قطع العطاء على يديه"[٥].

يقول البلوي: "إن المعتصم اختص الأتراك ووضع من العرب، فجعل الأتراك أنصار دولته، وأعلام

واستفتحوا بالترك أمرهم لم يستفتحوا بالأوس ولا بالخزرج[١]

دولته، وبذلك احتج عليهم العلوي البصري فقال:

بذلك تحول النفوذ من العنصر العربي إلى الأتراك، يقول المقريزي : "فانقرضت دولة العرب من مصر، وصار جندها العجم والموالي من عهد المعتصم إلى أن ولي الأمير أبوالعباس أحمد بن طولون"[٦].

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ٢٠٢/٢.
(٢) الأزدي: أخبار الدول المنقطعة، ص٢٥٨.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ، ١٨٠/٥.
(٤) عبدالباري محمد الطاهر، فرسان الخلافة، ص١٧٣.
(٥) الكندي، الولاة والقضاة، ص١٤٥.
(٦) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ص١٧٧.

لم يكتف المعتصم بإقصاء العرب عن المناصب العسكرية، بل أيضاً عن المناصب المدنية حيث جعل إمارة مصر لأشناس التركي" ففي سنة ٢١٩ هـ صرفت مصر إلى أبي جعفر أشناس فدعي له بها"[١].

كذلك عزل المعتصم جعفر بن دينار عن نيابة اليمن، وولي اليمن لإيتاخ[٢].

وقد كان هؤلاء الأتراك يؤثرون البقاء في عاصمة الخلافة خشية أن تدبر ضدهم الدسائس، كما كان الخليفة نفسه يرحب ببقائهم في العاصمة، خوفاً من أن يستقلوا بالبلاد التي كانوا يحكمونها، فكان هؤلاء الأتراك لا يحكمون بأنفسهم، بل يستخلفون من يقوم بالأمر نيابة عنهم، على أن يحمل إليهم هؤلاء النواب الأموال، ويدعون لهم على المنابر كما يدعي للخليفة[٣].

يقول البلوي: "فكان من عظُمت عندهم منزلته، وحمدت طريقته، ألزموه خدمتهم، وجعلوه الذاب عن بيضتهم، وقلد الأعمال الجليلة الخارجة عن الحضرة[٤]، واستخلفوا له عليها الخلفاء، وحمل إليه مالها، ودعي له على منابرها"[٥].

ويرى حيدر : "أن هذه السياسة الإقطاعية التي قام بها المعتصم كان لها أثر خطير على مصير الدولة الإسلامية، حيث ستظهر آثارها بالتدريج حتى تنتهي إلى النتائج الخطيرة، قد يكون من أولى هذه النتائج ضياع نفوذ الخلافة، واستيلاء الأتراك على الحكم الذي سوف يعقبه حتماً انقسام الدولة الإسلامية إلى دولة مستقلة"[٦].

كذلك ضعف العرب بعد إسقاطهم من دواوين الحكومة، وقطع مرتباتهم، ويعتبر ضعفهم وضعف العنصر الفارسي المتحضر والاعتماد على عنصر بربري فوضوي بداية النهاية لمجد الخلافة العباسية[٧].

وخلاصة القول: إن اعتماد المعتصم على الأتراك كان مقصوراً على الجيش، وتسخيرهم للقضاء على الخارجين على دولته، ولم يسمح لهم بالتدخل في شؤون دولته، فكان الخليفة هو القابض على زمام الأمور، وشدد في معاقبة من يعلن التمرد والعصيان منهم، وخير مثال على ذلك الأفشين، وقد كان الأتراك يخشونه، ولا يستطيعون التطاول عليه: "فقد كان مهيباً، عالي الهمة، شجاعاً مقداماً ، حتى قيل إنه كان أهيب خلفاء بني العباس"[٨].

ويتضح لنا أن قرار المعتصم في الاستكثار من الأتراك، وتوليهم أمر الجيش، لم يكن أبداً في مصلحة الدولة على المدى البعيد، فقد جر الويلات على الدولة، وعلى الخلفاء، وعلى المسلمين.

---

(١) الولاة والقضاة، ص١٤٦.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري، ٢٦١/٥.
(٣) سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، ص٤٤.
(٤) يعنون بالحضرة: حضرة بني العباس، أو عاصمة خلافتهم، وكانت بغداد، ثم سامراء.
(٥) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٣٣.
(٦) محمد علي حيدر، الدويلات الإسلامية في المشرق، ص١٤؛ أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص١٢٨.
(٧) أحمد عدوان: الدولة الحمدانية، ص١٨.
(٨) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢١٥/٢.

٢- مكانة الأتراك في عهد الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ):

ولي الواثق الخلافة، واقتدى بأبيه المعتصم في الاعتماد على الأتراك، فواصل تعظيم شأن الأتراك، وبالغ في ذلك، مما كان له أكبر الأثر فيما بعد من تسلط الأتراك على خلفاء الدولة الإسلامية.

فأصبحت المناصب المهمة في الدولة في أيديهم، بل إنه استحدث مناصب جديدة لاستعطاف الأتراك، ففي سنة ٢٢٨ هـ استخلف على السلطنة أشناس التركي، وألبسه وشاحين مجوهرين، وهو أول خليفة استخلف سلطاناً من غير العرب(١).

كما أسند إلى أشناس بلاد الشام، وأعمال الجزيرة، ومصر، ولكن على الرغم من ذلك ظل أشناس مقيماً بسامراء مركز الخلافة، وولي من ينوب عنه، كذلك عهد الواثق إلى إيتاخ القائد التركي بولاية خراسان والسند وكور دجلة(٢)، ولما توفي أشناس التركي عامل مصر من قبل الخليفة، ولى سنة ٢٣٠ مكانه على مصر الأمير إيتاخ، وكانت ولاية أشناس على مصر اثنتي عشرة سنة(٣).

بذلك أصبحت السلطة الفعلية في قبضة القواد العسكريين بعد وفاة المعتصم مباشرة(٤)، فدخلت هذه العناصر الفوضوية في المواقع العليا في الدولة العباسية، وهم لا يملكون الوعي بأهداف الخلافة، ولا الثقافة التي تمكنهم من العمل وفقاً لأهداف الأمة.

ومما لا يمكن إنكاره دور القادة الأتراك في إخماد تلك الفتن والقلاقل التي ظهرت في البلدان الإسلامية، فبالإضافة لأشناس وإيتاخ، برز القائد بغا الكبير الذي كان له دور بارز في القضاء على ثورات الأعراب في الجزيرة العربية، والتي هددت كيان الدولة في نواحٍ متعددة من الجزيرة العربية(٥).

كذلك القائد وصيف التركي الذي سار لإخماد ثورة الأكراد سنة ٢٣١هـ-٨٤٥م، والذين عاثوا فساداً في أصبهان، والجبال، وفارس، وتمكن من هزيمتهم، وعاد ومعه خمسمائة من غلمانهم، ونتيجة لهذا النصر الكبير الذي حققه وصيف التركي كافأه الواثق بأن أعطاه خمسة وسبعين ألف دينار، وقلده سيفاً وكساءً(٦).

حرص الأتراك في عهد الواثق على البقاء في قصورهم في عاصمة الخلافة، وتوطيد نفوذهم، والاحتفاظ بمراكزهم أما إيتاخ في خلافته لمصر بعد وفاة أشناس(٧) أقر بها عيسى ابن منصور الخرساني، وبقي بها نيابة عن إيتاخ(٨)، أيام المتوكل، وعلى اليمن أناب محمد ابن إبراهيم ابن أبيه، وكان على إفريقية محمد بن الأغلب، وبقوا إلى أيام المتوكل(٩)، ومن هؤلاء النواب الأتراك الذين حكموا مصر : باكباك التركي

(١) القرماني: اخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ص١٠٦.
(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي: ص٤٧٩.
(٣) ابن تغربي بردي: النجوم الزاهرة، ٢٥٢/٢.
(٤) زكريا كتابجي: تاريخ العرب والإسلام، ص٢٨٦.
(٥) ابن الأثير: الكامل، ٨١/٦، ص٩٠.
(٦) الطبري: تاريخ الطبري، ٢٨٤/٥.
(٧) ابن تعزي بردي: النجوم الزاهرة، ٢٥٢/٢.
(٨) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٥١/٢.
(٩) القلقشندي: مآثر الإنافة. ٢٢٧/١.

الذي ولاه الخليفة العباسي حكم مصر، فعهد إلى أحمد بن طولون بحكم مصر نيابة عنه سنة ٢٥٤ هـ[١]، لما توفي باكباك حل محله أمير تركي اسمه باركوخ، فأبقى على أحمد بن طولون نائباً له في حكم مصر، وأطلق يده في إدارة مصر، وهكذا أتيحت الفرصة لأحمد بن طولون أن يقيم في مصر دولة مستقلة في العصر الإسلامي[٢].

وفي سنة تسع وعشرين ومائتين حبس الواثق الكتاب، وألزمهم أموالاً عظيمة، وكان من بينهم سليمان بن وهب كاتب إيتاخ[٣].

ويُرجع البعض نكبة الكتاب إلى استئثار الأتراك بالأموال، حتى أن الواثق قد صادر من أموال كتابه ووزرائه مبلغاً ينيف عن مليون ونصف مليون دينار[٤].

ويعتبر عهد الواثق فترة انتقالية بين عصرين: الأول: عصر تمكن الأتراك من السلطة مع بقاء هيبة الخلافة، والثاني: يبدأ بالمتوكل، وهو عصر تمكن الأتراك مع زوال هيبة الخلافة واتجاهها في سرعة نحو الانحلال[٥].

ومما لا شك فيه أن الواثق قد ارتكب خطأ جسيماً عندما زادر من مكانة الأتراك، وترك لهم حق إدارة البلاد الإسلامية كما يشاؤون، والتصرف في جميع أرجائها، وزاد الأمر سوءاً عندما توفي ولم يعهد لأحد بالخلافة من بعده.

أختم هذا البحث بذكر بعض النتائج المهمة ويمكن إجمالها في التالي:

- تبين لنا ظهور خطر هذا العنصر منذ وقت مبكر ولكن قوة الخليفة المعتصم واستيعابه جل طاقتهم في سلسلة أعماله الحربية وتشديده في معاقبة من يعلن التمرد والعصيان حد من ذلك الخطر.
- أن هؤلاء القوم الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام ارتكبوا أعمال تنافي تعاليم الإسلام السامية وتنافي طبيعة العربي مما أثار سخط الأهالي، وكراهيتهم للأتراك الذين أساؤوا معاملتهم، واستهانوا بحقوقهم.
- خطورة تسلم أقوام لهم عوائد أجنبية وثقافات مختلفة مراكز لا يستحقونها فهؤلاء الأتراك سُلموا مراكز قيادية واسُكثر منهم فأدى ذلك إلى تدهور الخلافة ووصولها إلى هذه الدرجة المزرية من الفوضى والاضطراب.
- كما اتضح من الأحداث التي مرت بها بغداد في ظل هيمنة الأتراك أثر البداوة الأعجمية في تخريب العمران وإنزال الأضرار بالمدنيين.

(١) الطبري: تاريخ الطبري، ٤٢٦/٥.
(٢) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي الأندلسي، ص١٢٨.
(٣) ابن الأثير: الكامل، ٧٩/٦.
(٤) أحمد عدوان: الدولة الحمدانية، ص٢٠.
(٥) أحمد عدوان: الدولة الحمدانية، ص٢٠.

المصادر والمراجع :

أولاً : المصادر:

١- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق عبدالله القاضي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤١٥).

٢- الأزدي: ابن ظافر الأزدي (ت ٦١٣هـ) أخبار الدول المنقطعة، تحقيق علي عمر (القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠١).

٣- البلوي: أبو محمد عبدالله بن محمد المديني (ت ٣٣٠هـ) سيرة أحمد بن طولون تحقيق محمد كرد علي (دمشق، مطبعة الترقي، د.ط، ١٣٥٨).

٤- ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (المؤسسة المصرية العامة) د. ط، ١٣٨٣هـ.

٥- ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨هـ) تاريخ ابن خلدون (بيروت: دار القلم، ط٥، ١٩٨٤م).

٦- الذهبي: أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ) : سير أعلام النبلاء تحقيق : شعيب الأرناؤوط- محمد نعيم العرقسوسي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٩، ١٤١٣هـ).

٧- السمعاني: أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت، ٥٦٢) الأنساب تحقيق عبدالله عمر البارودي (بيروت، دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م).

٨- السيوطي: عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ): تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد (مصر : مطبعة السعادة، ط١، ١٣٧١).

٩- الصفدي : صلاح الدين خليل أيبك (ت ٧٦٤هـ) الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى (بيروت: دار إحياء التراث، د.ط، ٢٠٠٠م).

١٠- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) : تاريخ الأمم والملوك ، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٣، ٢٠٠٥).

١١- ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ) : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (حلب: دار القلم العربي، ط١، ١٩٩٧).

١٢- العصامي: عبدالملك بن حسين بن عبدالملك (ت ١١٠١هـ): سمط النجوم العوالي، تحقيق عادل أحمد عبدالموجود- علي محمد معوض (بيروت، دار الكتب العلمية، د، ط،١٩٩٨).

١٣- ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ): المعارف، تحقيق: ثروت عكاشه (القاهرة: دار المعارف، د. ط، د.ت).

١٤- القرماني: أحمد بن يوسف، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تحقيق أحمد حطيط- فهمي سعد (بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٩٩٢م).

١٥- القلقشندي: أحمد بن عبدالله (ت ٨٢١هـ) مآثار الأناقة تحقيق عبدالستار، أحمد فراج (الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط٢، ١٩٨٥)

١٦- ابن كثير : اسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية (بيروت : مكتبة المعارف، د. ط، د.ت).

١٧- الكندي : أبو عمر محمد بن يوسف : الولاة والقضاة (بيروت- دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، ١٩٨٩).
١٨- الكوفي: أبو محمد أحمد بن أعثم: الفتوح (بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١٩٨٦).
١٩- المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد (١٩٦٦م).
٢٠- ابن مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١ هـ) تجارب الأمم وتعاقب الهمم (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٣).
٢١- المقدسي: المطهر بن طاهر، البدء والتاريخ، (بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية، د.ط)
٢٢- المقريزي: تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م).
٢٣- ياقوت الحموي: أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ) معجم البلدان (بيروت: دار الفكر، د. ط ، د. ت)
٢٤- اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح (ت ٢٩٢هـ) تاريخ اليعقوبي (بيروت: دار صادر، د. ط، د. ت).

ثانياً : المراجع الحديثة:

٢٥- أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط١١، ١٩٦٦م)

٢٦- أحمد عدوان: الدولة الحمدانية (الجمهورية الليبية، المنشأة الشعبية للنشر، ط١، ١٩٨١).

٢٧- الأربلي: عبدالرحمن سمبط فنيتو : خلاصة الذهب المسبوك (بغداد: مكتبة المثني، د.ط، د.ت).

٢٨- أمينة بيطار: تاريخ العصر العباسي (سورية، منشورات جامعة دمشق، ط٤، ١٩٩٢).

٢٩- حسام الدين السامرائي: المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية (مكة المكرمة، دار الفكر العربي، ط٢، ١٤٣)

٣٠- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (الجيزة، ط٧، ١٩٦٤م).

٣١- خالد الجنابي : تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، ١٩٨٩م).

٣٢- زكريا كتابجي : الترك في مؤلفات الجاحظ (بيروت، دار الثقافة، د. ط. ١٩٧٢)

٣٣- سيدة اسماعيل كاشف: أحمد بن طولون (المؤسسة المصرية العامة، د.د، ١٩٦٥م)

٣٤- شاكر مصطفى : دولة ببني العباس (الكويت، وكالة المطبوعات، د.ط، ١٩٧٤).

٣٥- عبدالباري محمد الطاهر: فرسان الخلافة في العصر العباسي الأول (القاهرة، رياض الصالحين ، ط١، ١٩٩٤).

٣٦- عبدالعزيز الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة، (سورية، مطبعة جامعة الموصل، د. ط، د.ت).

٣٧- عبدالعزيز محمد الليميلم : نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٤١٣هـ، ١٩٩٤).

٣٨- فاروق عمر فوزي: العصر الذهبي عصر الازدهار الحضاري وبدايات التدهور السياسي والإداري (بغداد – مكتبة المثنى، ط٢- ١٩٧٧)

٣٩- فيليب حتى: تاريخ العرب مطول، أدوارد جرجي د. جبرائيل جبور (بيروت، دار الكشاف للنشر، ط٢، ١٩٥٣)

٤٠- محمد علي حيدر، الدويلات الإسلامية في المشرق (القاهرة، عالم الكتب، د.ط، ١٩٧٣م).

٤١- مصطفى كامل: حماة الإسلام (مصر: مطبعة اللواء، ط١، ١٩٠١).